**مياسي ابراهيم**
جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

# الأشعار الشعبية في المقاومة الوطنية

**تقديـــــم:**

إن الشعر الشعبي قد واكب المقاومة الوطنية منذ الوهلة الأولى التي وطأت فيها أقدام المحتلين الفرنسيين في القرن التاسع عشر الميلادي ،أرض الجزائر الحبيبة، وذلك خلال صيف 1830م.

لذلك على الباحث الذي يتصدى لدراسة مقاومة الشعب الجزائري في ذلك القرن، أن يبحث باستمرار على المصادر والوثائق في كل مكان يحتمل وجودها، وخاصة الوثائق المحلية وهي قليلة وشحيحة، ومنها الأشعار الشعبية التي نعتصر منها بعض المعلومات التاريخية المفقودة في المصادر الأخرى، ذلك أن الشعر الشعبي يعد من الوسائل التعبيرية المجسدة للثقافة الشعبية خلال تلك الفترة الاستعمارية حينما تغلب على المجتمع الجزائري طابع الأمية، فلم يجد أي وسيلة ليعبر بها عن نفسه سوى الشعر الشعبي، لذلك اعتمدناه في بعض الحالات كشواهد تاريخية.

وتقتصر هذة الدراسة على بعض النماذج من الأشعار التي تخلد الوقائع والأحداث التاريخية الهامة في كل من الزيبان والزعاطشة والهضاب العليا الغربية خلال ثورة أولاد سيدي الشيخ وثورة الشيخ بوعمامة. وسنركز على أشعار الفحل محمد بلخير ومسيرته التاريخية، مع ذكر غيره من الشعراء.

**1 – الشعر الشعبي في الزيبان:**

نقتصر في هذه الدراسة على بعض الأشعار التي خلدت خليفة الأمير عبد القادر في الزيبان الشهيد **فرحات بن سعيد** الذي كان سجينا في **تقدامت** عاصمة الأمير، فأطلق ســـراحه وكلفه بالالتحاق بمنطقة الزيبان" **وأنعم عليه بإيالة بسكرة وما إليها.**"[1]، على شـــرط أن يلاحق أولاد بن قانة. مع ترك أفراد عائلته عند الأمير عبد القادر كرهائن حتى يضمن عـــدم خـــداعه واستسلامه للفرنسيين مرّة أخرى. وفعلا أخْلَصَ فرحات بن سعيد هذه المرّة وأبـــْلى البلاء الحسن واستطاع أن يضـــايق القبائل الموالية لأولاد **بن قانة**

خلال سنتي 1840 ــ 1841م ويمنعهم من الارتياد والانتجاع بمواشيهم للبحث عن الماء والكلإ،كما أنه قام بجولة في الزيبان صحبة الحاج مصطفى الشقيق الأكبر للأمير عبد القادر، خلال صيف 1841م مكنتهما من جمع الضرائب.[2] غيـــر أن بعض الأفراد من **البوازيد** غدروا به وقتلوه بـــ**أولاد جلال** في سبتمبر 1841م حين ذهب إليهم، فبمجرد نزوله عن جواده التفوا حوله وطعنه كل واحد بسيوفه، لأنه حسب ظنّهم أن الرصاص لايخترق جسمه[3]. ثمّ انتزعت منه وثائقه وأُرْسِلَتْ إلى الحاكم الفرنسي بقسنطينة.[4]

دفـــن فرحات بن سعيد بعد هذه الحادثـــة الأليمة من قِبَلِ أنصاره في ضـــريح (النبي خالد) بمسجد بلدة سيدي خالد. وقد آثار موته موجة من الحزن والأسي في ربوع الجزائر. لأن رحيله يعد خسارة كبيرة للمقاومة الجزائرية، حيث أصبح اسمه رمزًا للكفاح والشجاعة ،وقد أثر هذا الحدث في نفوس الشعراء فأنجبت قرائحهم العديد من الأشعار الملحونة نذكر منها القطعة التالية لشاعر مغمور:

يا فارس إلي جيت تسيـــــر ردّ الجواب عني عاود الأخبـــار
عرق الجواد غطى التـــــدير ردّ الجواب عني يا راعي الصبار
كيفا مات حرمة أهل بن علي فرحات الدوادي حرمة من جار

ثمّ يقول الشاعر:

كيفا مات راعي الأحمـــــر يلغوا به في كل نـــهـــــــار
عدوه مـــنه يـــفـــــــزع وينهزم على ظهره بالـــنـــار
كيفا مات زين الفرســـــان كيفا فرحات من سرجه طار
يوم البارود لاســـــلاك إلاّبه قتله الطمع بن قانة الغـــــدار
يا الخيال بـــاء تسيـــــــروا أبكوا يا رجال على خلاّص الثّار.[5]

ورغم القضاء على فرحات بن سعيد، وإقصاء عائلة بوعكاز، فإن المقاومة الوطنية بقيت ملتهبة، و لم تعرف منطقة الزيبان لحظة واحـــدة مـــن الهـــدوء و السكينة، حتى جاءت ثورة الزعاطشة.

والملاحظة البارزة في هذا المجال هي أن الخلافات القديمة بين العشائر والقبائل قد لعبت دورًا هامًا في عدم توحيد المقاومة، وجمع الإمكانيات،ورصّ الصفوف، و لمّ الشمل، لدحض الدخيل المحتل. وقد استفاد الاحتلال الفرنسي من هذه الوضعية ولو بطريق غير مباشر، وعمل على بثّ بذور الشقاق وجذور النزاع ، ضمن سياسة "**فرق تسد**"، واستطاع أن يستدرج بعض العناصر والشخصيات الوطنية مثل بوعزيز بن قاتة وقبائلهم إلى صفوفه لضرب قبائل أخرى جزائرية.ولذلك استطاع العدو أن يدك حصون الزعاطشة ويقضى على كل شيء يتحرك ، وأصبحت الزعاطشة أثر بعد عين .

وقد صلت هذه الأخبار إلى العديد من القبائل ، وعلمت بهذه الجرائم الشنيعة فتأثرت كثيرًا ، وعزمت على الانتقام لموتاهم والأخذ بالثأر من العدو على المساجد التي هدمتها مدافع الحصار ولغابات النخيل المقطوعة التي تعتبر ثروة الزعاطشة[6]. وفي هذا الصدد نظّم الشاعر محمد ليشاني قصيدة طويلة من الشعر الملحون يذكر فيها بطولات ثورة الزعاطشة، وقائدها الشيخ بوزيان، نورد منها بعض الأبيات:

الحمد لله.

فرد الحمام اسعاني يحميك يا أبي الدونان * * *توصل الباي الصحراء سلم عليه بوزيان
بسم الله القصة صارت في آخر الزمان * * *هذا الروم جارعلينا ايدو يرفد بوزيان
بوزيان راه واعر ماهوشي مهمول للخزيان* * * غير الى راشق زويجة طبنجة بالفضةوالمرجان

ثمّ يقول الشاهر :

إن شاء الله من حوضو نروا من عسل وحمرولبان * * *تابعين طريق النبي ومصدقين يا بوزيان
إن شاء الله في الدنيا نسعدوا في الجنة يقول مضمان* * *يا الاسلام خسارة عنكم اتبعوا في أولاد جوان.

ويختم الشاعر قصيدته بالأبيات التالية:

ناصرين الدين قبالة متوكلين على الرحمان * * * يرحم مبارك بن الاحمر وعلي بن داود فتان
أولاد عبدالله جملة طاحوا في شلوالميدان الى * * *قال القول محمد ليشاني نظم غيوان.

كذلك خـــلّـــد الشاعر ابن الشرفي من قرية فليـــاش هذه الثـــورة في قـــصيدة رائعة، بـــدأها بالحمد لله والصلاة على الرسول الكريم(ص) ثمّ طرح السؤال التالي:

يادرا واشـــنهُ المفعول بين سيدي وناس الكفار ؟ ـــ الجواب:

جـــات ليهم قَـــدّ الـــراد ***** والعساكر مثل الويـــــدان
يحلفوا بعبادة ا لأوثـــــان ***** لن نخـــلوها وتبقى قـــفـــرًا
جملة من كل أوطـــــــان ***** من المدية للغرب اتلمســـان
لَـــمْ عساكرحتى لوهـــــران ***** ذي قـــضـــية ما جـــــرا
والجزاير من كل مرسى جات ***** سكيكدة و عنابة باثبـــات
على الزعاطشة تلاقـــــات ***** تـــورخو يا من هو يقـــرأ
العساكر والقوم تـــــدور ***** و المدافع تتـــعمـــرّ بالكور.[7]

وفعلا سجلنا تاريخ بعض هذه الأحداث في دراسات عديدة[8] تلبيـــة لنداء هذا الشاعر، ورغم ذلك فإننا نشعر أنها غير كافية، تنتظر من الأجيـــال الصاعدة أن تقوم بدراسات عنها لتخليد كفاح الأجداد الباسلة .

**2 – تعريف بالشاعر محمد بلخير:**

اصطدم الاحتلال الفرنسي في توسعه نحو الجنوب الغربي الجزائري،بثـــورة عارمة أشعلها الشعب الجزائري، بقيادة أولاد سيدي الشيخ،للدفاع عن مجـــالهم الحيوي، عير الهضاب العليا الجزائرية التي تتمتع بموقع استراتيجي هام في عمليات التوسع الاستعماري. وقد خلد الشاعر **محمد بلخير** عدة وقائع تاريخـــة لهـــذه الثورة في قصائد رائعة. فمن هو هذا الشاعر ؟

هو محمد بلخير، فحل من فحول الجزائر، اشتهر بجهاده وشعره الشعبي في الحوليات الجزائرية، طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. ولـــد حوالي سنة 1237هـــ/1822م في واد المالح الذي يقع بالشمال مابين مـــدينتي وهران وعين تموشنت[9]، قضى معظم طفولته وشبابه يرتـــع بـــين أحـــضان الحساسنة في جوء ملؤه السعادة والهناء وتحفّه البهجة والسرور، وقد لازم منذ

نعومة أظافره الطلاب والكتاتيب لحفظ القرآن الكريم وتعلم اللغة العربية وأصول الدين الإسلامي، مما جعله فصيح اللسان، كما عاشر بعض الشعراء والمداحين و"القوالين"، وتأثر بهم إلى حد أنّه بدأ يقلدهم وينظم الشعر وهو في ريعان شبابه، فقد تطرق إليه ما يعرف عندهم بـ "شيطان الشعر"، وهو الإلهام ليتغزل ببعض الجميلات ..والخيرات..والمالحات...، وكذلك مدح بعض الشخصيات التي إشتهرت بها منطقته منهم:**بلحضري من فرندة أو قدور صحراوي أو القاسمي** وغيرهم.

كان محمد بلخير قوي البنية متوسط القامة (مربوع القدّ)، أسمر اللون ببشرة داكنة، وله عيون خضراء، وجبهة مجعدة، ويتميز الشاعر بتدينه القوى،فهو يخشى الله كثيرًا في السرّ والعلانية، وله إرتباط متين بالولي الصالح **سيدي الشيخ** الذي يعتبره الدليل والمرشد والقائد الهمام في حياته، لذلك فإنّه ينتمي إلى الطريقة **الشيخية**. كان أيضا كريما شجاعا،فارسا مقداما، لايهاب الأعداء، وكان يفضل أن يستشهد في سبيل الله، على أن يعيش في بحبوحة من العيش في ظلّ الخضوع للنفوذ والهيمنة الإستعمارية، ولهذا فإنّه يعدّ من رجال الحروب والقتال،حيث قد روض حصانه الملقب بـ "الأزرق" للوغى إلا أن سقط في ميدان الشرف، وقد خلّد ذلك الحدث في عدة قصائد؛ أما أسلحته فهي بندقية مزدوجة **(زويجة)** مع مسدسين **(كوابيس رديف)** وخِنْجر **(خُودمية)** وحربة[10].

ولما نُكبت الجزائر بالاحتلال الفرنسي، وتوسع كالمرض الخبيث في جسم الأمّة، اندهش الشاعر محمد بلخير من هذه الظاهرة الغريبة، ونظم حول ذلك عدة قصائد يبين فيها طغيان هذا الأجنبي الفرنسي والذي يطلق عليه "**الرومي**" المسيحي. وقد تجسّم هذا الطغيان الثقيل وغير المحتمل في الجيش الفرنسي وأعوانه من "الحركة" و"القومية" والذين يلقبهم بـ" **المْزَانات** "، ثمّ في رجال الدرك والضرائب الثقيلة والعديدة وأعمال السخرة والمداهمات والإعتقالات والسجون الرهيبة ... وغيرها، وهذا ما جعل عائلة بلخير — وغيرها — تنتقل وتهاجر من موطنها الأصلي — قرب السعيدة — إلى أماكن أخرى

أكثر أمناً، وليستقرّ بهم المقام في الأخير بـ**القنطرة**. وهذا قبيل وفاة الخليفة **سي حمزة بن بوبكر** مسموما من طرف السلطات الفرنسية بالعاصمة، صيف 1861م.

يـعـدّ محمد بلخير من الأعيان البارزين في قبيلته،حيث يشارك في كـل قرارات مجلس العشيرة، وقد تزوج في سنّ مبكرة ـــ لايتعدى العشرين عاما ـــ من السيدة **فاطمة بنت بوقفدة** وأنجب منها عـدة أطفـال مـنهم:**الأخـضر والشيخ**، وله اليوم مجموعة من الأحفاد منهم ابن الأخضر الذي يسكن بقرية **عين كـرمس**. لقد شارك محمد بلخير في جميع المعارك الكبرى، خـلال ثـورة أولاد سيدي الشيخ 1864م، منها معركة **عوينة بـوبكر** والتي قتـل فيهـا العقيـد " بوبيرتر" **(Beauprëtre)** ومعركة ابن الحطاب ومعركة غارات سـيدي الـشيخ (فيفري1865م) والتي إستشهد فيهازعيم الثورة **سي محمـد بـن حمـزة** وهـو في ريعان شبابه،وقد نَـسبت رصاصات الغدر إلى العميل قـدور الـصحراوي، وبذلك إنقطعت العلاقة الـودّية التي كانت تربط الصديقين محمد بلخير وقدور الصحراوي، كما شارك أيضا في معركة **عين ماضي أو غـارة الـغـشوى** في عهد ثورة بوعمامة.

ومما لاشك فيه هو أنّ إسم محمد بلخير ومسيرة حياته، قد أرتبطتا بتاريخ المقاومة الشعبية بالجزائر، خلال الإحتلال الفرنسي للجنوب الوهراني، والـذي دام أكثر من ربع قرن (1864-1889م). وقد خلّد هذا الشاعر المجاهد الفارس الفحل جهاده مع الشعب الجزائري من أجل العقيدة والحرية في عـدة قـصائد تعكس وقائع تاريخية هامة، ومرحلة من تاريخنا المجيد، لهذا احتفظت بها الذاكرة الشعبية لترويها للأجيال الصاعدة وتبيـن تلك الأيام الحالكة التي عاشها الشعب الجزائري في ظلّ الاستعمار، كما أنّها أيضا تظهر الوجه الشرق لأجـدادنا في جهادهم البطولي الذي كتبوه على صفحات ماجدة نعتز ونفتخر بها اليوم.

وبعد مسيرة قتالية جهادية طويلة مع ثورة أولاد سـيدي الـشيخ الأولى والثانية هاجر محمد بلخير مع الثوار وأولاد سي حمزة بن بـوبكر إلى الـوادي الغربي ومنه إلى **قـيـر** ثمّ إلى **إيغلي وتينقورارين**. وبعد بَرهة حصل نـوع مـن

الخلاف ما بين **سي الدين بن حمزة** المؤيد للتفاوض مع الفرنسيين وأخيه **سي قدور بن حمزة** – قائد الثورة حينذاك– والمتحمس لمواصلة الجهاد مع عمّه **سي الأعلي**، فإضطرّ **محمد بلخير** إل مغادرة معسكرهم ببوزيد لينتقل إلى المنيعة ليحثّ أولاد زايد والشعانبة على إستئناف الجهاد المقدس؛ غير أنّه لم يوفق في مهمته، فإتجه صوب مخيّمات ومراعي الرزيقات عند عشيرته وقبيلته، لكنّ ابن أخيه **محمد بن الشيخ بن بلخير** أخبر قائد القبيلة **باحوس بالقدور** الذي سارع بإبلاغ المكتب العربي بالبيض، لهذا قام أعوان المكتب العربي بترصد خطوات الشاعر الذي إنتقل عند أقاربه وأحبابه بالحساسنة قرب مدينة السعيدة، أين وجد رجال الدرك في إنتظاره، فحموه وأشاروا عليه بالفرار، فأسرع إلى الإختفاء بقبّة الولي سيدي الشيخ بقصر الأبيض سيدي الشيخ لكنّ القوات الإستعمارية لحقت به هناك وألقت عليه القبض سنة 1884م، وسيق إلى المكتب العربي بالبيض، وأخضع للتحقيقات والإستجوابات. وبعد الإستجواب، سيق محمد بلخير إلى السجن، وقضى به عدة أيام، ثمّ نقل تحت حراسة مشددة إلى معسكر حيث إلتأم مجلس حرب الذي أصدر حكمه بخمس سنوات سجن نافذة مع نفيه إلى جريرة "**كورسيكا**" **سنة** 1884م .

انتشر خبر هذا النفي كالنار في الهشيم في كلّ أنحاء الجزائر ( التلّ والصحراء)، وعند جميع النّاس ــ أغنياء وفقراء ،أقوياء وضعفاء ــ لأنّه يمثل رمز الجهاد والشجاعة والغضب من الأعداء. وبعد انقضاء فترة بسجن معسكر، أخذوه إلى وهران ومنها أبحر إلى مرسيليا ثمّ حوّل إلى جزيرة كورسيكا ليسجن بقلعة "**كالفي**" **(CALVI)** الرهيبة، ولهذا يقول بلخير في احدى قصائده أنّه أبعد عن بلاده بمسافة طويلة قدّرها بطول بحرين.. عاش المجاهد الشاعر بهذا المنفى سنوات الجمر، وكان أكثر ما يورقه هو أنّه يعيش في غربة على أرض كفر، وكان يطلب من الله تعالى أن يُفَرِّج عنه ليرجع إلى أرض الجزائر الطاهرة، دار إسلام، ومما يؤلمه أيضا داخل السجن هو الإذلال الذي كان يشعر به من شدّة المهانة وفقدان لكرامته وإنسانيته وهو الفارس الشهم، فرغم العذاب الجسدي المتمثل في أعمال السخرة الشاقة، فإن آلامه

النفسية كانت أشـــدّ؛ حيث كانوا يذهبون بالمـــساجين إلى جزيـــرة "روس" (Rousses) من حين لآخر ليسرحوا أرجلهم من القيد تحت حراســـة مـــشددة، فيراهم السكان بلباسهم وهندامهم الـــرثّ ولحياهم الكثّة فيشتمونهم ويـــرميهم الأطفال بالحجارة باعتبارهم أعـــداء فرنسا؛ وقد دوّن الشاعر أروع قصائده في هذه الظروف، وقد وصل البعض منها إلى الجزائر رغـــم الـــستار الحديـــدي المضروب عليه. وهي قصائد رائعة وخالدة ،وقد جمع جزءً منها الأستاذ **بوعلام السائح والراهب عيسى ميلاد وسي حمزة بوبكر** وغيرهم، وبقيـــت مخزونـــة في الذاكرة الجماعية لأهل المنطقة، ويرددها بعض المولوعين بالأدب الشعبي أمثـــال **الفشفوش والحبيب المدني وقويدر بن كحل الرأس** وغيرهم.

أفرج عن شاعرنا المجاهد محمد بلخير سنة 1888 أو 1889م فرجـــع إلى أرض الجزائر، و لم يسمح له بزيارة أهله بالبيض، فتوجه إلى الأبـــيض ســـيدي الشيخ عند قبّة الولي، وأقام بعض الوقت، وحـــاول أولاد ســـيدي الـــشيخ أن يعوضوه عن معاناته، فقدموا له هـــدايا ثمينة من ملابس فاخرة وحصان جميل بسرجه المطرز بالخيوط الذهبية..إلخ.

أمضى محمد بلخير بقية حياته في قول الشعر الذي يفضح فيـــه أعمـــال الإحتلال الفرنسي في الجزائر؛ و لم يمكث في مكان واحد ،بل كان يتجول عـــبر الجنوب الوهراني، وحين تقدم به العمر أصبح يصاب من حين لآخر بوعكـــات صحيّة تلزمه الفراش حتى فارق الحياة سنة 1904 أو 1906م ودفن في مقـــبرة القناطر ،لكنّ بعد الاستقلال قام أحبابه وأقاربه بنقل رفاته إلى مقبرة الـــشهداء بدائرة **بوعلام** قرب البيض، ليدفن من جديد بجانب شهداء ثورة التحرير الكبرى [11].(رحمة الله عليه).

### 3- الأشعار المخلدة لثورة أولاد سيدي الشيخ وبوعمامة:

بعد عدة معارك قام بها الثوار، عملت السلطة الفرنسية على التقليل من شأنهم، وكلفت قاضي البيض بإصدار فتوى تعتبر فيها الثوار مجرد خارجين عن القانون. وقد رد عليه الشاعر الشعبي المشهور **محمد بلخير** فيما بعد بقـــصيدة طويلة، نورد منها بعض الأبيات.

مقواني نبكي الأجراح مهولـــــين بي فرقت وطني وعزّ الأوطـــــان
رانا ضروك راس النجوع متزهـين ما قعدوا في الذل إلا أصحاب بوران
إلى يبغي الجنة يضاد الكافريـــن والي ابغى الهناء ابغى التمـــــزان
قولوا لعطاء الله واش كلفك يا حزين ولاه تشمت في وال ما لداهم قران
لعبت بك الدنيا أيامها فاتـــين ما أخيار آنتا وألا أكلاب رحمـــان
رجال الله من توات إلى سطيـــــف رضوا عن الشيخ سقـام الفـرسان..

ويقول الشاعر أيضا:

أحنا مجاهدين ما هو قول ضعيـــف تبعنا ما قال ربي في القـــرآن
وأحنا فزنا على العرب جيد واشريف وافرح بنا الهاشمي شارع الأديان
مات منا أحداش فراسين الحيـــف متين ونصف بين كفرة وامـزان
واحنا بنا الناس تهترف اهتريـــف واشوايعنا من الدزاير للســودان

ثم يختم قصيدته بالأبيات التالية:

إلى ما نافع النبي ما عنده نيـــف محمد صاحب الشفاعة والغفران
من علم الأعباد بأيام التعريـــف فرض الصلاة والزكاة وشهر رمضان
والطامع فيك يا الله ما هوش اشخيف كذا من حد تنصره يصبح سلطان[12].

وهكذا أوضح الشاعر في هذه القصيدة أن المجاهدين أفضل وأشرف مـن الذين انضموا إلى الجيش الفرنسي وحاربوا بجانب الضابط بوران خلال ثـورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864م، كما عاتب الشاعر محمد بلخير قاضي البيض عطاء الله على ما صدر منه للحط من مكانة الثوار وأتبـاعهم، رغـم أن الله سبحانه وتعالى والرسول عليه أفضل الصلاة وأبهى السلام مع المجاهدين الـذين يجاهدون في سبيل الله لرفع راية الإسلام وتحرير البلاد، لذلك قد بارك جهادهم وأصبح سلاحهم أقوى وأنجح من سلاح العدو،فكتب لهم النصر واستشهد إلا أحد عشر فارسا، بينما العدو قتل منه أكثر من مائتي كافر وخائن وهذا بفضل الله ورضوانه عن الشيخ وبركة رجال الله الصالحين من إقليم توات إلى منطقـة سطيف..

ويظهر من هذه القصيدة أيضا أن معنويات المجاهدين مرتفعة، وأنهم قد انتصروا في معاركهم ضد الكفار، خاصة معركة " المويلك" الشهيرة التي اعتبرها فرنسا هزيمة لبوعمامة، وانتصارا للجيش الفرنسي الذي انتقم لاغتيال الملازم "وانبرونر" من جهة ودعم نفوذه في الجنوب الوهراني من جهة أخرى.

وتوصلت القوات الفرنسية إلى هذه النتائج حسب زعمها إلى الدور البارز الذي قام بها الجنرال "سيريز" (CEREZ) قائد الناحية الوهرانية، حيث نظم أربع طوابير للحفاظ على المناطق التلّية من الناحية الوهراني، ودفع بطابور سعيدة داخل الأهالي المتمردين، كما أشادت السلطات الفرنسية أيضا بدور العقيد "اينوسنتي "وجنوده الذين تلقوا التهنئة والتنويه من قبل وزير الحربية ورئيس الجمهورية.[13] ولكن الأحداث التي سجلت بعد هذه المعركة تبين عكس ما جاء في التقارير العسكرية الفرنسية، ذلك أن هذه الموقعة تعتبر انتصارا لبوعمامة ورجاله بدليل أن الجيش الفرنسي أصبح يتخوف من مواجهة بوعمامة ويتفاداه كلما أمكن ذلك وأن العقيد "اينوسنتي" قد أرغم بعد المعركة إلى التوجه نحو الشمال أي إلى **خيضر** هروبا من بوعمامة، ويظهر أن عزله – فيما بعد–كان بسبب هزيمته أمام بوعمامة.

ظل بوعمامة طيلة هذه المدة سيد الموقف وقد توجه إلى **الأبيض سيدي الشيخ** للاستعداد، والتهيئة للمسيرة الطويلة التي أجبرت الجيش الفرنسي على الهروب وجعلته يتيه في تلك الفيافي بدون دليل؛ وقد نسج حول هذه المسيرة الكثير من الأساطير والغيبيات، مثل أن "بركة" سيدي الشيخ **بوعمامة** جعلته يسبق القوات الفرنسية، ويمر بجانبها أحيانا و لم تره.

دامت هذه المسيرة حوالي ثلاثة وعشرين يوما من 30 ماي إلى 21 جوان 1881. وكانت هذه المسيرة نحو الشمال مرورا بـ**البيض وستيتن ثم سيدي عبد الرحمان وعيون البراش** ليعود ثانية إلى **بوسمغون** في الجنوب قاطعا الخط الرابط بين **بوقطوب المشرية عين الصفراء**، وقطع خلالها ما يقارب السبعمائة وثلاثين كيلومتر، حيث برهن بوعمامة مرة أخرى عن تفوقه على الطوابير التي ترصدته من أجل القضاء عليه وعرقلة مسيرته ،ولكنها لم تستطيع إيقافه أو

مواجهته وهذا خلافا لما روجته الأوساط الاستعمارية أنها لم تره، وهذا غير معقول إذ كيف يمكن لجيش جرار يمر بجانب العدو بدون أن يراه أو يسمع ضجيجه.

والجدير بالذكر هو أن انتصارات **بوعمامة**، جعلت عدة قبائل من المنطقة تنضم إليه الواحدة تلوى الأخرى منها قبائل **الأغواط الأكسل**[14] والتي وضعتها فرنسا تحت قيادة **الدين العموري** آغا **آفلو** ، فثارت وحاولت الانضمام إلى الثورة لتشارك في هجوم فرندة مع **بوعمامة**، لكنها تعرضت لهجوم من طرف قوم **أحرار** تيارت بقيادة الآغا الحاج **قدور الصحراوي** يوم 14 جوان **1881م بواد خروف**، فاضطرت إلى الرجوع على أعقابها فتعرضت مرة أخرى يوم 16 جوان إلى هجوم قبائل أرباع **الأغواط** تحت قيادة **سي باحوس بن قدور**، المدعم من طرف الرائد "بولا" (BELIN) مع أربع فرق خيالة فكانت معركة ضارية، خسر فيها الأغواط الأكسل مائة وخمسة قتلى، واشتهرت هذه الواقعة الشنعاء بين الأشقاء بموقعة " **قارة الغشوى**" والتي تقع على بعد عشرين كيلومتر شمال شرق **استيتن**.وقد دون الشاعر محمد بلخير وقائع هذه المعركة في قصيدة من الشعر الملحون منها :

دير علي يا صاحب التدبير  درلي في القسمة الوافية عودي
يوم في قارة الغشوى نهار كبير  كاملين ثلث ضربات في عودي
ضرب نطح من الرقبة لحد الدير  عادم بالجراح باليمنى يردي[15]

هكذا التجأت السلطات الفرنسية إلى استعمال جميع الوسائل لتحطيم الثورة كتحريض القبائل والأعراش فيما بينها.

وقد كلفت السلطات العسكرية العقيد "دي نيقرييه" بمهمة معاقبة القبائل التي شاركت في الثورة، لكنّه تصرف بمحض إرادته فكانت تصرفات حمقى ،منها نسفت زاوية سيدي الشيخ الكبير المتواجدة بقرية **الأبيض سيدي الشيخ**، وقبل وصوله إلى هذا الهدف كانت قوته قد إقترفت أعمالا إجرامية بشعة ضد السكان العزل خاصة أهالي **الطرافي** بضواحي البيض وأهالي **الأربعوات** وذلك

يوم 9 أوت 1881م. وهاجم أيضا سكان الشلالة الظهرانية وطالب من قائدهم تسليم كل الذين شاركوا في معركة" المويلك " للإنتقام منهم ومصادرة أسلحتهم من بنادق ومسدسات وسيوف.

وفي 14 أوت 1881م وصلت القوات الفرنسية تحت قيادة العقيد "دي نيقرييه" إلى قصور الأبيض سيدي الشيخ الأربعة حيث قام بأعمال شنيعة يندى لها جبين الإنسانية، فقد وصل به البغض والاستهتار والعجرفة إلى تفجير قبة سيدي الشيخ [16] كلية ونبش قبره الذي مر عليه حوالي قرنان ونصف، وكان يهدف من وراء ذلك الإستهزاء من الرموز الروحية التي تحث السكان على الثورة والمقاومة والدفاع عن حمى الوطن والدين، وتشتيت وحدة الأهالي الملتفين حول الزاوية التي تمثل النواة الدينية والسياسية لهم. كذلك الانتقام من ثورة بوعمامة ومناصريه وتخويف الأهالي من مغبة التمرد والانفصال عن السلطة الاستعمارية والالتحاق بالثورة.

وعملت فرنسا على استمالة أولاد سيدي الشيخ إليها، وتفاوضت مع سي قدور بن حمزة عن طريق بوحفص لغواطي، وتم الاتفاق بين الطرفين في شهر ماي 1883م. وينص هذا الاتفاق على الأمور التالية:

أولا: أن تقوم السلطات الفرنسية بتجديد بناء ضريح سيدي الشيخ، الذي نسفه القائد العسكري " دي نيقرييه"، في أوت 1881م.

ثانيا: أن تقدم السلطات الفرنسية تعويضا سنويا بمبلغ ستين ألف فرنك، لسي قدور بن حمزة وأفراد عائلته عما صودر منهم منذ عام 1864م.

ثالثا: تعيين سي قدور على رأس قيادة كبيرة بالبيض وتعين عدد من أفراد عائلته في مناصب أخرى تحت إشرافه.

رابعا: يقوم سي قدور وأفراد عائلته بإقناع كل أفراد عائلة أولاد سيدي الشيخ الموجودين بالمغرب الأقصى بالعودة إلى الجزائر[17]. وفعلا تم تطبيق هذا الاتفاق، وأعيد بناء ضريح سيدي الشيخ، ثم رجع سي الدين بن حمزة وابن

أخيه سي حمزة بن بوبكر ومعها عائلة الأولاد سيدي الشيخ وكثير من قدماء المجاهدين ليستقروا كلهم في التراب الجزائري [18].

وما من شك أن هذا الإجراء كان يهدف إلى عزل الشيخ بوعمامة وإفشال ثورته التي وقفت كحاجز صلب يمنع تسرب الاحتلال الفرنسي إلى الجنوب الجزائري. ولكن الشاعر **محمد بلخير** ورفيق الشيخ بوعمامة في الكفاح يبين في قصيدة طويلة تشبث الأهالي ببوعمامة لمواصلة الكفاح، نورد منها بعض المقتطفات:

يا الفارس حشمتك عيد الأخبار
واش حال القرامي رايس القوم

اليانك من البيض فرحة والأبشار
الشيخ أتبنى وإلا مازال مهدوم
هدموا قنطاس الهمة والأوقار
ولا أبقى حد على السلطان معكوم

ثم يقول الشاعر:

كان شئ من الأبطال أولاد بكار
لا تخلو نجع السلطان مقسوم
بوعمامة مولى سطوة وزيار
وأباه بين أكتاب النبي المعصوم
بوعمامة يعطي تسبيح الأذكار
وبوعمامة سره للناس مفهوم

ثم تختم القصيدة بما يلي:

راه ربي شاهد بالي نخلف الثار
أو عارف القلب إلى من خوه مهموم
لو أنصيب أنجي لك كالجار للجار
أو تفارقني في اليقظة مع النوم [19].

**4 – نعي الشيخ بوعمامة:**

طيلة السنوات الباقية من حياة الشيخ بوعمامة قضاها في الجهاد تارة وفي الهدوء طورا آخر وكل ذلك تحت مراقبة ومحاصرة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال " ليوتي" (LYAUTY) ، وأخيرا التجأ الشيخ بوعمامة إلى ضواحي **وجدة** بزاوية **رأس بو ـ رديـن** قرب **عين سيدي ملوك** حيث وافته المنون في السابع من أكتوبر 1908م[20]. (رحمه الله). ودفن هناك.

وقد نعاه العديد من الشعراء منهم المقدم **المهناني** من أولاد سيدي الحاج عبد الحاكم لأولاد سيدي الشيخ بقصيدة عنوانها : **عزوني ياناس** ،قالها بعشرين رمضان 1326هـ /1909م.

عزوني ياناس في شيخ العربان ... عزّي واعنايني ومفتاح أورادي
تبكي عيني على بوعمامة طول ازمان ... تبكي عيني على أمد كش ميعاد
تبكي عيني عليه ما طال الزمان ... طول الحياة والدموع على خدي
تبكي عيني عليه مفتاح البيان ... نور الرحمة الى على الخير يهادي
تبكي الأرض والسماء والحيوان ... وتجاوبهم جبال بانواح اتصادي.[21]

أما الشاعر الشعابني **قدور بن لخضر** فقد نظّم قصيدة طويلة بعنوان :**عزّى الفقراء في شيخهم** نورد منها بعض الأبيات:

عظّم الأجر على بكاكم يا الأخوان ... وعلى بالخَصلْة ديما
غيب قطب الدايرة مولى البرهان ... شيخ الفقراء بوعمامة
غيّب قطب الدايرة معدن الأكوان ... نور وضي لكل ظلمة
الاسقم بالخصلة وعمارت الآوطان ... تبري به الّي سقيمة
يا فتى خلّيك راني في الاحزان ... جرحي ما تبريه حكمة
وعلى شيخي بوعمامة غالي الشان ... قنطاس هدى وحرمة [22].

**ولله ولي التوفيق.**

## الإحـــــالات:

(1) محمد عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، الطبعـــة الثانيـــة شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي، بيروت، دار اليقظة، 1964، ص: 300.

(2) *Rapport sur la puissance et les réssources d'Abdelkader par M. MASSOT , Adjoint à l'intendance militaire,Grenoble,le15 juin 1841.Archives.Ministére de.Guerre.(A.M.G.), H.228.*

(3) *Le Commandant SEROKA « Le Sud constantinois de 1830 à 1855 » - in Revue Africaine , n° 56,Alger, (1912), p.420.*

(4) *Charles FERAUD,<< Les BEN - DJELLAB , Sultans de Touggourt , Notes historiques sur la province de Constantine >>, in Revue Africaine, n° 28,Alger; (1884), pp.331-332.*

(5) *Ibid, pp.334-336.*

(6) *Journal des opèrations de la colonne expéditionnaire des Zibans , sept , oct et nov 1849.A.O.M.,2H25. - et aussi , HERBILLON , Quelques pages d'un vieux cahier , souvenirs du Gènèral Herbillon, (1794 1866 ) , publier par son petit fils , Paris, Berger-Levrault ,1928, p.136.*

*(7) pp.426-420.>> Charles FERAUD,<< Les BEN - DJELLAB*

(8) د.إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية**، (1837-1934)،الجزائر،دار عزمة،2005،ص.63.-كذلك كتاب: **من قضايا تاريخ الجزائر النعاصـــر**، الجـــوائر، ديـــوان المطبوعات الجامعية،1999،ص.75.

-د.إبراهيم مياسي،"ثورة الزعاطشة" ،مجلة الدرلسات التاريخية،جامعة الجزائر،معهد التاريخ، العدد المزدوج الحادي عشر والثاني عشر،السنة1421هـ / 3000م،صص.87-100.

(9) من المفروض أن يلد في مراعي الرزيقات حسب عادة البدو،لكن الظروف الطبيعية القاهرة جعلت عائلته تهجر المضارب الى الشمال؛ذلك أن مواطن الرزيقات تمتدّ ما بين جبال الاكسل بـــالأطلس الصحراوي و سي ناصر والغسول والطمار ، وهي البيئة السهبية التي تنتمي إليها قبائل الأغـــواط الاكسل المنحدرة من قبائل بني هلال وبني سليم ،فهم إذن عـــرب أقحـــاح مـــشبعين بـــالقيم الأصيلة.تلكم هي البيئة التي ترعرع فيها الشاعر.- هذه المعلومة مأخوذة من عين المكـــان ،مـــن طرف أقرباء الشاعر.

(10) - أنظر:

Cheikh Si Hamza BOUBAKEUR , Trois poèmes algériens (Mohamed Balkhayr - Abdallah Ben Karriou - Mohamed Baytär.) ,Paris,Maisonneuve & Larose, 1990 , 324 pages.

(11) Ibiden.

(12) BOUALEM BESSAIH, Etendard Interdit, Paris, Sindbad, 1976, pp .135-138.

(13) A.M.G., H.376 Ordre Général,Au quartier Général à Alger,le 24 mai 1881,

(14) قبائل الأغواط الأكسل: أخذ هذا الإسم من المنطقة الجبلية ومنها جبل الأكسل من جبال عمور، شمال غرب مدينة الأغواط،وهم بدو من خمسة أقسام، هم الرزيقات-أولاد مومن- فرارجة - أولاد عيسى - وأولاد عمران، وبذلك يمكن أن نميزهم عن قبائل الأغواط الأرباع المرتبطين بالأغواط المعلوم(حسب ماهو رائج هناك.).

(15) AISSA MILAD, **"Etude détaillée d'un poème de Mohamed Belkheir",in Bulletin de Société .Géographique et d'Archéologuie**, d'Oran, Bulletin spécial sur le centenaire de Bou-Amama, (1981-1982), pp.21-37.

(16) Réveil de Mascara, n° 85,11 Septembre 1881;MASCARA..: Journal

(17) يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين،قسنطينة،دار البعث، 1980، ص. 255-256

(18) Le Martiniere et LACROIX, Documents pour servir a l eude du Nord – Ouest Africain,, Tome II,Lille,L.DANEL,1896, p.915.

(19) BOUALEM BESSAIH,Etendard interdit, Paris,Sindbad,1976, pp.123-125.

(20) Télégramme (chiffré) du Général CAZE commandant le XIX corps d'armée à Monsieur le gouverneur général d' Algérie,(Alger,le 29 mars 1903), Archives d'.Outre.Mer.,30H80.

(21) Bulletin du. Comit. Afr. Fran. ,Paris, Octobre 1908, p.343.

(22) Si Hamza BOUBAKEUR , **Un Soufi Algérien SIDI CHEIKH** , PARIS, Maisonneuve et Larose,1990, p.259.

ولله ولي التوفيق.

## ملخص بالعربية:

واكب الشعر الشعبي المقاومة الوطنية ليخلد مآثرها، خاصة حين غياب - في كثير من الأحيان - الوثائق الارشيفية المحلية،لهذا حل الشعر الشعبي محل المدونات التاريخية،لهذا فإن هذا الشعر يعتبر من الوسائل التعبيرية المجسدة للثقافة الشعبية خلال الحقبة الكالحة لاحتلال الفرنسي للتراب الوطني ،وذلك حينما تغلب على المجتمع الجزائري طابع الأمية، فلم يجد سوى الشعر الشعبي

فقد اعتمد الكثير من الباحثين على هذا النوع من الشعر كشواهد حية تعكس بعض الحقائق التاريخية. وتنحصر هذة الدراسة على بعض النماذج من الأشعار التي تخلد الوقائع والأحداث التاريخية الهامة في كل من الزيبان والزعاطشة والهضاب العليا الغربية خلال ثورة أولاد سيدي الشيخ وثورة الشيخ بوعمامة ،و سنركز على أشعار الفحل محمد بلخير ومسيرته التاريخية، مع ذكر غيره من الشعراء. وقد أوردنا عدة نماذج من الشعر تتحدث بصدق وجمالية عن حوادث مؤلمة لكفاح الشعب الجزائري.



## ملخص بالفرنسية:

Sans doute que des poèmes populaires à tracer la lutte du peuple algérien à travers ces révolutions au courrant du dix neufiém siecle ; et par manque des documents d'archives locaux ,on peut opter à ces poèmes ,pour avoir des renseignements à des faits historiques ,car on peut aussi les compter comme des sources pour l'écriture de l'histoire de l'Algérie contemporaine..Cet étude est basée sur les poèmes de guerre et d'amour de Mohamed Belkheir,qui était présent à la revolution des Ouled –Sidi – Cheikh et du Chiekh Bou-Amama,et qui a participer à ces révolutions ,et il a subi des sanctions pénibles.